المفارقة والمفاجأة
في شعر احمد مطر

د. فليح كريم الركابي

جامعة بغداد / كلية الاداب

احمد مطر من مواليد البصرة عام ١٩٥٨ شاعر كان في خضم المأساة ... عاش في العراق والكويت ثم في بريطانيا والسويد ، ومازال متنقلا جواباً يبحث عن وطن ، بضاعته الشعر ، له لون خاص يميزه م سواه في ميادين الشعر العربي المعاصر ،يركز على المفارقة ومفاجأة المتلقي بضربات رائعة في تفاصيل العمل الفني ، واروعها واعنفها تلك التي تكون في ختام القصيدة مجسدة واقعاً اليماً بلغة سهلة ساخرة متداولة، تمرد من خلالها على الاوضاع الانهزامية ، وسياسة قادة العصر ، فرحل عن وطنه متذمرا. وقد اوجز اسباب رحيله قائلاً:

سبعون طعنة هنا موصولة النزف

تبدي ولا تخفي

تغتال خوف الموت في الخوف

سمبيتها قصائدي

وسمها ياقارئي : حتفي !

وسمني ... منتحرا بخنجر الحرف

لانني ، في زمن الزيف

والعيش بالزمام والدف

كشف صدري دفتراً

وفوقه

كتبت هذا الشعر بالسيف(١)

رفض الواقع المزيف والتمرد عليه عرضا احمد مطر الى مشكلات كثيرة، اهمها ابتعاده عن الساحة الادبية العربية ولا سيما العراقية على الرغم من وجود الكثير من عشاق فنه ، فضلا عن ان سياسة التعتيم والحصار الثقافي المفروضين على المواطن والمبدع معا كانا السبب في اقصائه ، وعلى الرغم من ذلك تمكنت قصائد احمد مطر التي سماها لافتات من ان تخترق الحواجز وتصل الى المتلقي العربي، وكانت وابلا قاسيا على الخانعين والمتخاذلين ، ومتعة رائعة لمتذوقي الادب ، وهذه مفارقة جميلة جمعت بين ثنائيتين هما القسوة والمتعة.

أن شعر احمد مطر ينتسب الى الاتجاه الواقعي الصريح المباشر وفيه سخرية تهكمية لاذعة تخلق معادلا موضوعيا في نفس المتلقي حين يوازن بين النص والحالة المعيشية ، فتتجسد معاناة حقيقة على الرغم من تلبسها بالرمز او القناع اللذين يقصدهما الشاعر كي يثير أذهان متلقية ، أو ليخلق مفارقة تأويلية، فيتركهم يفسرون النص بحسب رؤاهم او بحسب ظروف الحدث ، وقد جسد الشاعر الحالة العربية الا نهزامة المزمنة ، وحالة العراق الشاذة في العقدين الاخيرين من القرن العشرين تجسيدا رائعا حين التأمت اللغة بالفكر لخلق صورة وازنت بين الخيال والواقع.

المفارقة لغة/ التغريب والافتراق والاغراق في التضاد ، وهذا الاغراق يعد تحديثاً في المضامين ، ولا سيما التي تؤول، والمفارقة اليوم من البني

الاساسية في معمارية القصيدة العربية المعاصرة لانها (عبارة متناقضة ظاهريا ، او مناقضة للعقل، ومع ذلك فأنها قد تكون صحيحة) [٢] . فتخلق أجواء ممتعة تهيمن على أذهان المتلقين ، وتجعلهم مسحورين ومنجذبين إلى متابعة العمل الفني ، وهي (لعبة عقلية من أرقى أنواع النشاط العقلي متنوعة)[٣] فضلا عن أنها التفاتة ذكية تعبر عن صانعها أو مبدعها الذي يهدف إلى خلق توازن من خلال التضاد والتناقض الذين يعدان عماد العمل الآبي في بعض الأحيان وهو (اختلاف القضيتين بالإيجاب والسلب بحيث يقتضي لذاته صدق أحدهما وكذب الأخرى)[٤] ومرجعيات المفارقة متنوعة وربما تكون من التراث أو من الواقع المتخم بالأحداث وذلك ما رصدناه في شعر احمد مطر.

المرجعيات التراثية :

اسلوب احمد مطر سلس ومباشر في تناول موضوعته الشعرية ، وتبدو مهمته في التعامل مع اللغة سهلة والسبب (أن اتحاد الشاعر بمخلوقة اتحاد تاما كفيل بتحويل الامر الشاق الى طاقة ايجابية نافذة ...وبهذا الشكل الارقى للغة الانفعالية التي تغادر المعايير الاستعمالية للغة ، تكون الاثارة العاطفية المماثلة لدى المتلقي)[٥]. فتبدو العوالم غير الاعتيادية التي تخلقها اللغة ماثلة امام المتلقي المستوعب طاقة اللغة التعبيرية عوالم اعتيادية وربما مدهشة أو مذهلة ، يتمكن الشاعر بواسطتها من الهيمنة على الاجواء النفسية فضلا عن وجود المفاجأة التي تكون من اعمدة العمل الفني الرئيسة.

جاءت افكار احمد مطر متناصة مع التراث الذي يعد من المرجعيات الاساسية في بناء القصدية العربية المعاصرة لانه زمن فكري متجدد من خلال تفاعل المبدع معه ولانه يمنح النص (خلقا جديداً موازيا للمشهد التاريخي الاصلي مصاغا بحس ساخر نقدي واضح ينجح في تحقيق حالة المباغتة والصدمة

والرعشة في مفاصل المتلقي)[٦] فتكون المفارقة رسم صورة غير مألوفة ، اما عند احمد مطر فتكون غير متوقعة ، ومفاجئة وغير مستهلكة او مستنفذة :

قرأت في القران

((تبت يدا ابي لهب))

فأعلنت وسائل الإذعان

((أن السكون من ذهب))

أحببت فقري ، لم أزل أتلو

وتب

ما أغنى عنه ماله وما كسب

فصودرت حنجرتي

بجرم قلة الادب

وصودر القرا

لانه ... حرضني على الشغب[٧]

يمثل ابو لهب الجانب السلبي من سلوكيات الامة في كل الازمنة المتعاقبة بعد الرسالة الإسلامية وهو رمز تراثي سلبي يسقطه الشاعر على التداعيات القائمة لإضاءتها وفضح مكان الزيف والخداع والخيانة ، فهذا الرمز يتطابق مع واقعنا اليوم تطابقاً تاما ومن خلال ذلك التطابق تحدث المفارقة والامتعاض وتاويل المضمون فهي مفارقة تاويلية.

لقد كانت ثقافة احمد مطر القرآنية رائعة ولا سيما في دقة الاختيار

والتوظيف والدلالة فهو حين يستعير بعض النصوص ليجعلها فسيفساء في نصه إنما يريد ان يتمر من خلالها على الواقع العربي المضحك المبكي الذي يعيش حالة انهزامية فكل الحكام ابو لهب لانهم سائرون على نهجه وهم وتنيون معاصرون يسيرون على وفق اهواء سادتهم .

أن توظيف النص القرآني جاء متطابقاً مع اجواء القصدية ومفارقاً للاجواء العربية السياسية الان وهذا ما يؤدي الى حدوث مفارقة في نفس المتلقي وقد الحقه الشاعر بنص اخر مقتبس يمثل حكمة عربية شائعة (ان السكوت من ذهب) التي استغنى الشاعر عن ذكر مقطعا الاول لامور فنية يفرها وضع القصيدة وقد قال الجرجاني (ترك الذكر افصح من الذكر. والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ونجدك انطبق ما تكون عليه إذا لم تنطق أتم ما تكون بيانا اذا لم تبين) (٨) (اذا كان الكلام من فضة) وهذا مثل يضرب في حق المتهاونين الخانعين وفيه مفارقات لفظية (سكوت وكلام / فضة وذهب) والمضمون الخفي مفارقة تخاذل واقدام ولكل مسوغاته فالحاكم المتخاذل الساكت يحصل على ثمن سكوته ذهبا وقد ذم القران الكريم اولئك قائلا (ما اغنى عنه ماله وما كسب) بيد أن التأثر الرافض نصيبه الأبعاد والقتل.

أن الشاعر اراد يمنح النص خلقاً جديداً أو بعد يوازي المشهد التراثي في تداعياته ونجاحاته وقد وفق في تحقيق المباغتة والمفاجاة في نفس المتلقي فضلا عن التجليات ورسم صورة المستقبل الذي يجب ان يكون.

أحمد مطار شاعر حضاري واع يعرف كيف يتعامل مع النص المقتبس بدقة ويوظفه في المتن الشعري، من خلال المرجعية التراثية التي تسلط الضوء على الواقع البائي ، وتفضح مكامن الزيف والخداع ، بيد ان مكافأة اولئك المبدعين النفي والمطارة والتقتيل.

أن التناص مع القران الكريم يرد كثيرا في شعر احمد مطر عن وعي

أدراك تامين بحيث يجعل النص الابداعي الجديد في بعض الاحيان ((مفارقا لمرجعيته فلا تكون دلالته عادية لانه لا يلتزم بسمة توصيلية عادية وانما يتلاشى فضاؤه في فإضاءات لاحدود لها))[٩] ومن خلال التناص مع القران الكريم بدأ الشاعر جريئا في تعامله وسبب تلك الجرأة واقع الآمة المؤلم والمتردي وحنق المخلصين من ابنائها عليه وتلك الجرأة كانت مأخذا كبيرا على احمد مطر يدان بها لانها توحي بتحريف النص ولا سيما في قصيدته (فبأي الاء الولاة تكذبان):

غفت الحرائق

اسبلت اجفانها سحب الذخان

الكل فأن

ولقد تفجر شاجبا

ومنددا

ولقد أدان[١٠]

هذا واقع الحال الشجب والتنديد مقابل الاجتياح والتخريب والاحتلال وهما سلاح العجزين وقد بدأ النص باستعارة جميلة (غفت الحرائق) واستقر الامر للسلطان ولا حولوا لاقوة لشعوب بل الضياع لا مالها ومناها لقد جاء التناص كما قلنا جريئا ومنفعلا ومتفاعلا مع الحدث من خلال عروس القران (سورة الرحمن) التي افاد الشاعر منها كثيرا في تفعيل الاحداث ولا سيما من خلال ايقاعها المتلاحق فكان لصوتي الالف والنون دويا وجرسا مقتنا الى جانب موسيقى بحر الكامل الهادئة التي تناسب الى النفوس انسيابا بديعا وقد تنزاح في بعض المفاصل الى بحر الرجز لوجود علائق وشجيه بين البحرين أن هذه الادوات ضاعفت من الطرفق بقسوة والحنق على ولاى العصر ورفض حالة التداعي

المزمنة ويستحضر احمد مطر احداث العصر الاموي الدامية ولا سيما في خلافة يزيد الذي امعن في تدمير الرموز الاسلامية الرائعة والاساءة اليها فمن واقعة الطف الى الحرة والى ضرب الحجام مكة بالمنجنيق وسفك دماء المسلمين من دون تردد أو تردد او حياء في الكعبة المشرفة ولا سيما حينما سفك دم عبد اله بن الزبير فيها . ان هذه الاحداث مفارقة مؤلمة ومفاجأة تثير الاشمئزاز في نفس المتلقي المسلم وفي القرن العشرين يعيد التاريخ نفسه حينما يسفك دم (جهيمان) في الكعبة المشرفة وهذه مفارقة مؤلمة وتطابق بين الشخصيتين (يزيد والملك السعيد وعبد الله بن الزبير وجيهمان) على الرغم من اختلاف العصرين والأسلحة والتدابير الامنية بيد ان المضمون واحد وكان القدر اصر على ان يرمي هذه الامة بتلك الاحداث المفزعة ، لقد حاول الشاعر أن يقرأ التاريخ والواقع معا ويبين نقاط الالتقاء والتطابق محاولا التذكير بما يشمل عليه من مآس لعلها تساعد على استنهاض الهمم والثورة.

هاهو ذا (يزيد)

صباح يوم عيد

يخضب الكعبة بالدماء من جديد

أني أرى مصفحات حولها

تقذفها بالنار والحديد

وطائرات فوقها

تقذف بالمزيد

هذا (جيهمان)

يسوي رأسه الدامي

ويدعو للعلا صبحه

ويقسم بالكعبة

أن يترك الكلمة رعبا خالدا

للملك السعيد(١١)

أن استخدام المرجعية التراثية في هذا النص مفارقة تسند إلى معادل موضوعي سلبي هو الشخصيات التي أدت الدور الرئيس في تحطيم الأمة والحاق الضرر بها.

ويحاكي احمد المطر التراث العربي بسخرية لاذعة متهكما على الواقع المزيف في برقية عاجلة الى صفي الدين الحلي ، وقد قلب المضمون بمهارة رائعة ليدلنا على حاضر مفارق للماضي ومفاجئ للمتلقي حين يقول :

سلوا بيوت الغواني عن مخازينا　　واستشهد الغرب عل خاب الرجا فينا

سود صنائعنا بيض بيارقنا　　خضر موائدنا حمر ليالينا(١٢)

ومفارقة جميلة وشتان اجواء النصين فصفي الدين الحلي كأن منتشيا بحلاوة الانتصار والظفر باعدائه واخذ الثار منهم في قصديته يا يوم وقعة زوراء العراق ، أما احمد مطر فكان ممتعضا من تخاذل الساسة المعاصرين وتصرفاتهم اللاأخلاقية :

سلوا الرماح المعالي عن معالينا　　واستشهد البيض هل خاب الرجا فينا

بيض صنائعنا سود وقائعنا　　خضر مرابعنا حمر مواضينا

فالرماح العوالي رمز الانتصار والنشوة قابليها بيوت الغواني رمز التهتك واللا ابالية وهذه تصرفات امراء العصر . ومعالينا قابليتها ومخازينا بمفارقة ساخطة تشهد على فعائل العرب في الغرب والبيض السيوف رمز الرجولة وسلاح

الهجوم في المعركة قابلها الغرب الذي أمعن بعضهم في الولاء لسياسته على حساب امته ، وجاء التقريع مرأ وقاسياً في البيت الثاني من خلال المفارقة والمفاجئة فبيض صنائعنا تقابلها سود صنائعنا دليل على أن أفعال المعاصرين خزت التاريخ العربي المجيد وسود وقائعنا الماثر التي يتركها فرسان العرب في سوح الوغى تقابلها رايات الاستسلام والتخاذل عند فرسان العصر بيض بيارقنا وخضر مرابعنا ازدهار الامة وعنفوانها في ربيع متجدد تقابلها خضر موائدنا مستساغة يحرم منها الشعب المكافح وحمر مواضينا رمز التاريخ العربي المجيد الذي كتبه الرجال بالدماء يقابلها ليالي سهر وتبذير وانفاق على الجواري من دون الشعور بالمسؤولية حمر لياليا.

أحمد مطر قلب المضمون فاحدث مفارقة رائعة لغرض تعرية الواقع المدان وقد كان دقيقا وجريئا في عرض مقارنة حقيقية فكانت المفارقة رمزا تراثيا ومرجعية موفقة.

المرجعيات الواقعية الساخرة :

الواقع متخم بالاحداث الجسام ولا سيما العربي والشاعر احمد مطر بنقلها بدقة ليفاجئ المتلقي بحدث حقيقي باسلوب فني رائع عمادة المفارقة وهذا الأسلوب يعتمد على مرجعيات يفترض أن المتلقي يعرفها سلفا لكنه يعجز عن تقديمها بذلك الأسلوب الفني الذي يبدعه الشاعر ، أن المنهج الواقعي في الادب ينطلق من الاساس القائل بالاعتراف ((بالواقع كأمر موضوعي بمعزل عنا بمعزل عنا ومتطور بحسب قوانينه الخاصة ومن الاعتراف بإمكانية معرفة هذا الواقع الموضوعي ، واستيعابه فنيا ، ومن هذا الأساس الفلسفي ينبع المبدأ الجمالي الاول وهو كون الواقع مصدر كل فن اصيل ، وانه يحمل في ذاته المثل العليا التي تلهم الكاتب)) (١٣) .

فالمرجعية الواقعية عند احمد مطر تعني تمثيل الحياة ، واعادة خلقها بواسطة الفن وتقديم التجربة البشرية باسلوب جديد :

حين القى نظرة منتقده

لقيادات النظام الفاسده

حبس (التاريخ)

في زنزانة منفردة(١٤) .

احمد مطر يمتلك فكر وقادا واستيعابا تام لاحداث العصر لذا كانت انطلاقته قوية في ترعية السياسات الزائفة وفضح العلاقات الخفية فكان شاهدا على العصر لذا اقتنع بالنفي والابتعاد ومهاجمة الوضع الراهن من بعد بيد ان عينة على الوطن.

النص السابق يوضح تاريخنا العربي الذي حبس في زنزانة منفردة منذ القدم ولاسيما إذا أراد أن يتكلم عن الحقيقة فالتاريخ الحقيقي أما لم يكتب أو أنه يستعبد ويحكم عليه بالسجن المؤبد بأمر من صاحب السلطة السياسية وتحرم من لذة قراءته الأجيال وهنا تكمن المفارقة فالحياة للمتخاذلين يتنعمون بملاذها ويطرد منها الأحرار ، فواقعنا أعجوبة الدينا الثامنة من خلال حكاية عباس :

عبر اللص اليه .. وحل ببيته

اصبح ضيفه

قدم عباس له القهوة

ومضى يصقل سيفه

صرخت زوجته : عباس

أبناؤك قتلى : عباس

ضيفك راودني : عباس

قم انقذني يا عباس

عباس وراء المتراس

منتبه لم يسمح شيئاً

زوجته تغتاب الناس(١٥)

النص كله مفارقة اللص معروف لا بسط المتلقين وعباس هذا يجب ان يتعامل معه بطريقة مضادة تماما بيد ان النص يخبرنا ان عباسا صار مضايفا رؤوفا به فبدأ رمز التخاذل والخنوع والدياثة ، عباس لا يمتلك الإحساس ما قيمة سيفك الصقيل يا عباس ، لقد الح الشاعر على كلمة عباس وكررها مرات عديدة ليثير دهشة المتلقي ، ويكشف عن تخاذل رمز الواقع العربي (عباس) الذي يبصر الانتهاكات ويغضي عنها ان ذلك العباس منتبه لا يسمع شيئا مفارقة جميلة يضعها الشاعر امامنا أي اننا نمتلك كل مقومات التغيير لكننا لن نتمكن من فعل شي فالايدي مكبلة فصقل السف الغرض منه اخافة الشعوب لا لدرء الاعتداءات الخارجية ولكم افواه التائرين وأن اعلامنا اهمل باولئك الثائرين واصبح مسخرا للدفاع عن طبقة خاصة ، ويغتاب الاخرين أي أنه تخلى عن مسؤوليته التي يجب ان ينهض بها . ويلتحم احمد مطر مع الواقع العراقي ويبدو شاعر عراقي ذاق مأساة النفي والتشريد والملاحقة وظلم الاعتداءات الجائرة على دول الجوار فيقول في قصيدته المقفاة الوحيدة في هذه المجموعة الشعرية الضخمة وهذه المفارقة فنية ، قصدية تقليدية في خضم اعمال كاملة مكتوبة أما على قصيدة التفعيلية او قصدية النثر الموقعة وقد وردت تحت اسم (العشاء الأخير لصاحب الجلالة إبليس الأول)هذا حكم تطابقت معه النتائج فيما بعد أحداث عام (٢٠٠٣)

امنت انك اية فبحدك　　اتحد الهوى وتفرق الفرقان

طوبى لنبلك في الجهاد فمره　　ارض الكويت ومرة ايران

وكأن خارطة الجهاد اعدها　　(ميخا) واكد رسمها المعدان

القدس ليست من هنا تؤتي　　ونعلم أنها من دونها عمان

والفقر ليس بارضنا فمياهنا　　تروى المياه ونفطنا غدران(١٦)

بناء النص قائم على المفارقة ، ففرض الجهاد لايلعن الا بشروط ويصدر عن مرجعية دينية تتحمل مسؤولية دماء الامة وتحظى بطاعة الغالبية العظمة من الشعب الذي يؤمن بقيادتها الروحية والدينية وان ما حدث مفارقة مدهشة فساحة الجهاد اصبحت ارض العروبة والمسلمين (الكويت وايران) وامر الجهاد يفتى به لقتل المسلمين والمفارقة المضحكة الثانية والمفاجئة للمتلقي تقول ان (ميخا) هو المشرع لتلك الفتوى باسم الاسلام وهذا ما حدث على ارض الواقع (العراق) فضلا عن ان الشاعر اخبرنا أن خراطة الجهاد يكتبها شذاذ الآمة وجهلاؤها لابل ، من هم ليسوا منها وان طريق القدس لا يبدأ من الكويت كما قيل في أثناء غزوها انها مغالطة وقلب للحقائق وحاولة ايهام الناس وتضليل رؤاهم وهذا الربط الجغرافي العجيب الغريب أفاد منه الشاعر فكان نوعا (من الهزء قوامه الامتناع عن اسباغ المعنى الواقعي او المعنى كله على الكلمات والايحاء عن طريق الاسلوب والقاء الكلام بعكس ما يقال)) (١٧) .

والمفارقة المفاجئة في البيت الأخير عجيبة هي الأخرى فالمواطن العراقي عاش في العقد التسعيني من القرن العشرين وما بعده دون مستوى الكفاف وتحت خط الفقر على الرغم من امتلاكه. ثروات عديدة متمثلة بالثروة المائية التي تذهب سدى فضلا عن بحر النفط الذي نعوم عليه.

ويخرج احمد مطر من اطار المفارقة الاقليمية الى المفارقة الانسانية فاضحاً زيف العلاقات وما تتعرض له الشعوب الفقيرة من جوع وتفتيل على يد دعاة الانسانية والحرية فالمفارقة اللفظية في (لحم ، عظم وشامبو- دم) فضلا عن الاستخدام الدقيق للدلالة المضمونية للفعلين يتحتم وتسبح التي تعني ان الدول الفقيرة فضلا عن فقرها وجوعها تسبح في بحر من الدماء وهنا تكمن المفارقة جراء النزاعات التي تنشب بينهم والتي يختلقها المترفون أصحاب الكلاب المدللة فهذا حال الإنسان المعدم يقابله حال الكلب بأسلوب مباشر:

ياسيدتي ... هذا ظلم !.

كلب يتمتع باللحم

وشعوب لا تجد العظم

كلب يتحمم بالشامبو...

وشعوب تسبح بالدم(١٨)

نصوص احمد مطر فضلا عن كونها واقعية الا أنها ساخرة مستهجنة للوضع القائم بأسلوب فني رائع وقد قابل الشاعر الواقع (باعتبار مافيه من النقص بصورة الكمال كونها أسمى الحالات التي ينبغي ان يكون عليها الواقع وكثيرا ما تكون صورة هذا الكمال غامضة ملتاثة، بل لعلها لا تعدو هذا المضمون ابدا ولا تخلص من ظلامه قط الى نور الوضوح والبيان وعلى انه لا يكفي الاحساس العام بها)(١٩) فكانت المرجعيات مستوحاة من ارض الوقاع وهو الغالب او المميز للافتات احمد مطر الذي يفاجئ المتلقي بامور معيشة بيد أن الاسلوب الفني منحها التميز والسمو على الرغم من الاغراق في المباشرة والوضوح.

المفارقة والموقف الفكري :

الشاعر فنان ومفكر ، يحتم عليه الابداع الحقيقي أن يتحدث بجراة غير مبال بسطوة الجبابرة فيكون تحت الانظار وربما الاضطهاد والموت ذلك الموت الذي سيكون خلودا ابديا ورسالة تروي للاجيال تاريخاً حقيقيا كتب بالدم قوامه التمرد ضد الظلم الذي ينتج عنه اغتراب الشاعر الذي تتفاقم عنده (حالة الشك التي امتلأت بها بعض النفوس والتي وصلت حد الانفصال)(٢٠) والانفصام ولاسميا نفوس المبدعين التي تبحث عن ذاتها في خضم متلاطم مضطرب ، وثورة الطين لاحمد مطر نحكي ثورة الانسان المضطهد ن وقد اشتملت على مفارقات لفظية صريحة وضمنية فكان صراع الاضداد اللفظي الى جانب الصراع الى جانب الصراع الفكري باستعارات جميلة :

خيروني

بين موت وبقاء

بين ان ارقص فوق الحبل

أو ارقص تحت الحبل

فاخترت البقاء

قلت : اعدام

فاخنقوا بالحبل صوت الببغاء

وأمدوني بصمت ابدي يتكلم(٢١)

موت - بقاء وارقص - عدم وصمت - يتكلم ... الخ) الفاظ مفارقة بعضها لبعض ترسم صورة المعاناة والالم حين اغترب الشاعر فكريا جراء الاحداث والانتكاسات المتعاقبة التي تشهدها الساحة العربية وشعوره بأن العالم

كله سجن اقحم فيه مرغما فكبله بقيود وغمره بالالم وشرور واشعره بأنه غريب بين اهله وناسه وقد يكون الاغتراب لعدم التكيف مع الاوضاع السائدة او لظروف اقتصادية في المجتمعات الراسمالية جراء اغتصاب حقوق الاخرين او قد تكون لاسباب دينية تسببها العزلة او التصوف فتكون النفس مغتربة[٢٢] والغربة (عاطفة تستولي على المرء ولا سيما الفنانين فيعيشون في قلة وكأبة لشعروهم بالعبد عما يهوون)[٢٣] وذلك ما حدث فعلا لاحمد مطر الذي عاش غربتين زمانية ومكانية كانتا السبب في تمرده على الواقع ومهاجمته بقوة وقسوة ممسكا بفكر متلقيه من خلال المفارقة والمفاجأة:

جس الطبيب خانقي

وقال لي :

هل ها هنا الالم ؟

قلت له : نعم

فشق بالمشرط جيب معطفي

وأخرج القلم !

هز الطبيب رأسه ومال وابتسم

وقال لي :

ليس سوى قلم

فقلت : لا ياسيدي

هذا يد ... وفم

رصاصة ... ودم

وتهمة سافرة ... تمشي بلا قدم[٢٤]

حوار نفسي رائع (منلوج) قدم الشاعر من خلاله معاناة المثقف العربي الذي يشعر بالاحباط والاغتراب الفكري. والمفارقة تكمن في كل لفظ من الفاظ النص فمتى كانت الثقافة والتبصر تهمة ؟ أنه الرعب والارهاب الذي يكبل الايدي الشريفة وبكم الافواه كي لا تنطبق بالحق ، فتهمة سافرة مفارقة وتمشي بلا قدم استعارة رفعت من شان المفارقة وجعلتها مؤثرة ، أن كل عوامل البيان قد تضافرت في النص الابدايع من اجل خلق حالة التاثير، والاستجابة والهيمنة على نفوس المتلقين ، وفكانت المفارقة الفكرية ساخرة تهكمية ، وقد عمل فكر الساعر المتوقد على (تشكيل صورة مرئية على انقاض المعاني الممعنة في التجريد)(٢٥) .

نحن قطيع الماشية

تسعى بنا اظلافنا للحتوف

على حداء الراعية

وافحل القادة في قطيعنا

خروف ! (٢٦)

مفارقة مضحكة جادة واقعية فيها صيرورة وتحول من الحالة الانسانية الى الحالة الحيوانية التي اشعرت احمد مطر بفقدان الوطن والضياع جراء تصرفات الولاة القاسية التي أمعنت في تعذيب وقتل الابرياء ومازال النزيف مستمراً:

وطني مازال ملقى

مهملا فوق الرصيف

غارقا في سكرات الموت

والوالي هو السكين

والشعب نزيف(٢٧)

مفارقة واقعية مؤلمة اخرى فالولاة يفترض ان يكونوا حماة العدل ورجال الانصاف لا أن ينقلبوا قتلة وجلادين يسومون شعوبهم الموت والدمار ، فيهرب الاحرار متلاشين في بلدان الغربة بحثا عن ذاتهم وعن مأوى جديد وبحثاً عن الحرية بيد أن الحنين يشدهم بقوة الى الاهل والوطن :

ليس عندي وطن

او صاحب

أو عمل

ليس عندي ملجأ

او مخبأ

أو منزل

كل ما حولي عراء قاحل

وأنا حتى من ظلالي اعزل و

أنا بين جراحي ودمي انتقل

معدم من كل انواع الوطن(٢٨)

اذا سلب الوطن من الانسان عاش في جدب وضياع وهذا هو حال الشعب العراقي والفلسطيني اللذين تشردا في كل الاصقاع بحثا عن ملجأ وهربا من سطوة الجبابرة ولكن من دون جدوى فالوطن لا يباع ولا يبدل ويبقى الافياء يشتاقون إلى ثراه ، ينحينون الفرصة كي يعودوا اليه.

واجه احمد مطر غربة قاتلة وضياعا وتشرذما وحاول ان يقابله بالرفض والثورة بجراءة ، فكان الهزء من الواقع شعاره بموسقى تتفق مع الحدث وتنبع منه ، تلقائية في مصدرها هيمن عليها بحرا الرجز والكامل أما مصادفة او بسبب هدوئهما وجمال موسيقيهما فضلا عن تدفق آهات الشاعر التي تفرض عليه النثر أحيانا ألانها كبيرة وألا تستوعبها حدود التفعيلة فكانت هموم احمد مطر غناء متدفقا كالمطر تنبعث على انغام بحر الرمال إلى جانب البحرين السابقين ، ان مهارة أحد مطر وموهبته أعطت القصيدة دفقا جديداً ولونا متميزا في ساحة الأدب العربي المعاصر.

وختاماً نقول ان المفارقة لعبة ذكية لا يجيد استخدامها الا الأذكياء المبدعون . كانت من العناصر الرئيسة في بناء القصيدة العربية الحديثة وأن احمد مطر وظفها بوعي خدمة لبناء نص عربي جديد فكانت المهيمن الفعلي على أعماله الشعرية الكاملة وأصبحت سمة واضحة تميز من أقرانه من الشعراء العرب المعاصرين.

هوامش البحث ومصادره :

١. الاعمال الشعرية الكاملة احمد مطر ص٦ ط٢ ٢٠٠٣ لندن.

٢. معجم المورد منير بعلبكي عربي انكليزي بيروت ط١١ ١٩٧٧ .

٣. المفارقة في القصص العربي المعاصرة د. سيزا قاسم مجلة فصول مج٢ ع٢ ١٩٨٢ ص١٤٤.

٤. معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب مجدي وهبة – كامل المنهدس مادة تناقض مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٩.

٥. المحاكاة والوزن او القول الادبي في الشعر د. عبد الكريم راضي جعفر مجلة الطليعة الادبية، دار الشؤون الثقافية، ع٣، س٣، ٢٠٠١، ص١٠٦.

٦. الصوت الاخر، الجوهر الحواري ، الخطاب النقدي ، فاضل ثامر ، دار الشؤون الثقافية، وزارة الاعلام ، بغداد ط١، ١٩٩٢، ص٣٢٥.

٧. الاعمال الشعرية الكاملة ، ص٨.

٨. دلائل الاعجاز ، عبد القاهر الجرجاجي ، محمود محمد شاكر، مطبعة الخانجي ، القاهرة، ١٩٨٤، ص١٤٦.

٩. السيميائية والنص الادبي ، اعمال متلقي معهد اللغة العربية وآدابها ، جامعة عنابة، الجزائر ، ١٩٩٥، ص١٩١.

١٠. الاعمال الشعرية الكاملة ، ص٦٤.

١١. نفسه ، ص٤٩٨.

١٢. نفسه ، ص١٥٧.

١٣. الاتجاه الواقعي في الرواية العربية السورية ، د. سمر روحي الفيصل ، منشورات الاتحاد العام للادباء والكتاب العربي ، ص١٩٨٦، ص٩.

١٤. الاعمال الشعرية الكاملة ، ص٢٩٢.

١٥. نفسه ، ص١٦.

١٦. نفسه ، ص٥٠٧.

١٧. المعجم الادبي، جبور عبد النور، مادة سخر ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١، ١٩٧٩.

١٨. الاعمال الشعرية الكاملة ، ص٢٢٣.

١٩. حصاد الهشيم ، ابراهيم عبد القادر المازني ، دار الشعب ، القاهرة ، ط٢، ١٩٢٤ص٣٠٣.

٢٠. الغربة في الشعر العراقي ، اطروجة دكتوراه ، د. فليح كريم الركابي ، جامعة الكوفة، كليه التربية للبنات ، ١٩٩٦، ص١٠٦.

٢١. الاعمال الشعرية الكاملة ، ص١٧.

٢٢. ينظر الاغتراب ، ريتشارد شاخت ، ت كامل يوسف حسين ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠، ص٦٦.

٢٣. المعجم الادبي ، جبور عبد النور ١٨٦/١.

٢٤. الاعمال الشعري الكاملة ص١٨.

٢٥. البنيات الدالة في شعر امل دنفل ، عبد السلام المساوي منشورات الاتحاد العام للادباء والكتاب العرب ١٩٩٤ ص١١٤.

٢٦. الاعمال الشعرية الكاملة ص٥٨.

٢٧. نفسه ص٩٤.

٢٨. نفسه ص ٢٤٨.